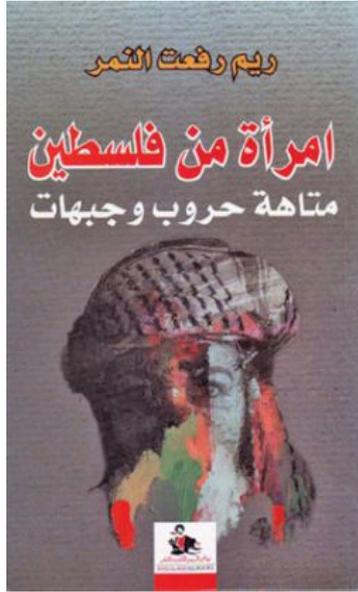


متاهات «امرأة من فلسطين»



النسخة الورقية - دولي

الجمعة، ١٨ مارس/ آذار ٢٠١٦ (٠٠:٠٠) بتوقيت غرينتش)

آخر تحديث: الجمعة، ١٨ مارس/ آذار ٢٠١٦ (٠٠:٠٠) بتوقيت غرينتش)

مازن معروف

في كتابها «امرأة من فلسطين، متاهة حروب وجبهات» (دار رياض الريس)، تقف ريم رفعت النمر، على الحبل العاقل بين حياتها وحياتة محمد زيدان (أبو العباس)، زوجها والقيادي الفلسطيني، الذي أصبح بنظر الغرب «الإرهابي الأول» بعد خطفه الباخرة الإيطالية أكيلي لاورو وما تسببت به من أزمة دولية، قبل أن يتوفى في السجن، وبظروف غامضة وفجائية، إبان الاحتلال الأميركي للعراق.

الكتاب يستعرض بتوازن لاف وأسلوب بعيد عن شعريات النضال، ساغا فلسطينية، بطلاها رجل وامرأة، سندمع حياتهما الزوجية، لثلاثة عقود تقريبا، بالتنقلات المستمرة والملاحقات، والتهديد بالاعتقال، والمضايقات أحيانا والاستدعاءات. هذا قبل أن يسقط غزو العراق كصخرة ثقيلة بينهما، محدثا تلك الهوية الجغرافية المستحيل عبورها. ستنقى ريم في بيروت فيما يعلق أبو العباس في العراق، بعد أن تكون أفلتت في وجهه الحدود السورية واليرانية. يتبعه الجيش الأميركي، الكيدي النزعة، ويعتقله في نهاية المطاف.

الرجل الذي سعى جاهداً وراء فلسطين، أصبح في مرحلة لاحقة صورة نموذجية لقيادي تميز بظله الكبير الذي كان عطاءه الوحيد، ونأيه عن الصفقات السياسية والسلوكيات البراغمية. ثم وضعه جهاز الموساد نصب أعينه بعد سلسلة عمليات أعد لها في السبعينات. فتعرض لأكثر من محاولة اغتيال خلال اجتياح بيروت. وبعد خروج الفلسطينيين من العاصمة اللبنانية، استضافته دمشق وطلب منه الرئيس حافظ الأسد لاحقا تدريب ابنه ياسر. غير أن أبو العباس كان قد انشق في بداياته عن القيادة العامة برئاسة أحمد حبريل، كما اختلف في الرؤية أحيانا مع ياسر عرفات، قبل أن يجد نفسه مضطرا للجوء إلى النظام العراقي طلبا للحماية من التهديد الإسرائيلي وكون علاقته بعرفات لم ترق كثيرا لدمشق.

غير أن أبو العباس بقي الذراع الوحيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية التي حاولت النيل من إسرائيل عبر عمليات العنف الثوري في الثمانينات، فيما كان عرفات ينعطف باتجاه السياسة مغازلا هذا النظام أو ذاك. أما ريم، فكانت قد أسست، ورفاقا لها، المنظمة الشيوعية العربية التي ستنفذ عمليات سطو على عدة مصارف، ثم تقوم بتفجير وزارة الدفاع السورية منتصف السبعينات، قبل أن تتلقى ردا قاسيا من النظام، لتضطر وبشجاعة لافتة إلى الهرب عبر دمشق التي تطاردها استخباراتها، بجواز سفر مزور، ومنها إلى بغداد فأبيدجان صحبة زوجها الأول الذي ستفتر علاقته به، وقد كان مطاردا مثلها وأعدم السوريون شقيقه الذي كانت ريم صديقه المقربة.

مع ذلك، فإن أيا من ريم النمر أو أبو العباس، لم يرد أن تبقى فلسطين مجرد خاطرة طويلة الأمد. هما الأتيان من خلفيتين اجتماعيتين متناقضتين تماما، وخطين نضالين مختلفين في الشكل. فهي البنت الوحيدة لمصرفي ثري، متنفذ وصارم في أن، درست في الجامعة

الاميركية وعاشت في أرقى أحياء بيروت، قبل أن تتمرد في مرحلة لاحقة، وتتخذ مساراً حياتياً متواضعاً ومستقلاً. أما أبو العباس، فلم يكن أكثر من شاب فقير نموذجي، كما سذاجته في حب فلسطين. تربي في مخيم النيرب في حلب، بتم الأم، ثم انتقل في مرحلة لاحقة إلى مخيم اليرموك الدمشقي، وقد عمل في أشغال يدوية عديدة، قبل أن يمتنهن التدريس لفترة. وكان يمكن له أن يقضي حياته كأي شاب فلسطيني لم يخرط في العمل المسلح، لولا أنه أثر حمل البندقية حتى هدده بيريز علانية، ملوحاً بالوصول إليه أينما كان مخبأه في بغداد، الأمر الذي أعده أبو العباس اعترافاً من العدو بتأثير عملياته العسكرية، رغم أنه لم يكتب لأي منها تقريباً النجاح.

حكاية أبو العباس وريم النمر، تدلنا مرة أخرى على حقيقة أنه ليس للفلسطيني سيرة ذاتية كعقد. هو ليس مجرد شخص عادي، بل جزء من قضية مهما كان شكل خياراته، أو أسلوبه في العمل السياسي أو العسكري ومهما اختلفت مقارنته للواقع. لقد ولد بسيرة ذاتية حددت ملامحها مسبقاً، كنتاج وطن مسروق. وتحتم عليه لاحقاً أن يدفع ثمن الإشكاليات السياسية الكبرى في المنطقة، والصراعات بين الأنظمة العربية، وحروب النفط والجنون والتدخلات الدولية، وخيارات ياسر عرفات غير المفهومة في بعض الأحيان والمتقلبة، التي طبعت شخصه. الكتاب يطوي أكثر من مجرد قصة حب أو ملامح من أسرة فلسطينية. وتستعرض فيه النمر وبكثير من الدقة، والإيجاز أحياناً، الهزات السياسية التي ضربت الشرق الأوسط، والتي أصبحت داخل بيتها الزوجي مجرد «طرف اجتماعي» سيحدد أسلوب حياتها وحياة أسرتها الصغيرة مع أبو العباس، لتصبح عمود يومياتهما الفقري.

اللافت في سير رجال منظمة التحرير الأبرز، هو أنهم وجدوا يوماً جميعهم في بقعة صغيرة جداً في بيروت، لا تتعدى البضعة كيلومترات مربعة ضمن ما عرف بـ «جمهورية الفاكهاني»، واجهوا عدواناً إسرائيلياً واحداً، وتورط حلهم في الاقتتال اللبناني، إلا أن كل واحد منهم كان يرى فلسطين بلون، لون واحد فقط. لقد اختلفوا في الأيديولوجيا، والرؤية السياسية، وتخاصموا أيضاً عبر علاقاتهم بأنظمة متناحرة، كاللبيبي والعراقي والسوري. لم يختلفوا على حدود فلسطين، وإنما على طريق الوصول إليها. وفي الأخير وجد بعضهم نفسه مرغماً للجوء إلى بعض الأنظمة العربية سيئة السمعة. كمهرب خلفي. خياراتهم تلك جعلت لهم سيرة ذاتية شديدة التباعد والاختلاف، وقد تكون حكاية أبو العباس، الأكثر مأسوية وعزلة، بعد أن كانت عملياته العسكرية تمنى بالفشل دوماً، ليتحول في آخر سنوات حياته إلى رجل لم يعد لديه ما يفعله سوى زراعة قطعة أرض عراقية صغيرة، باسم فلسطين.